المحاضرة الخامسة:
تحليل وتفسير نتائج البحث الكيفي:

إن ممارسة البحث الكيفي يتطلب اكتساب العديد من المعارف والمهارات البحثية كإجراء المقابلة، وتحليل ودراسة الحالة والملاحظة، كما يتطلب كفاءة في تحليل البيانات النوعية التي يتم جمعها، فبعد جمع معلومات من مصادر وبطرق يختارها الباحث حسب طبيعة البيانات التي يريد الحصول عليها، وطبيعة الظاهرة السلوكية التي يستهدفها بالدراسة، تأتي مرحلة تحليل البيانات الكيفية "L'analyse des données qualitatives "، وهي المرحلة الحاسمة في الكيفي، والتي تمنحه ميزته عن البحث الكمي (الإحصائي)، الذي يعتمد التحليل فيه بالأساس على الأساليب، بينما التحليل في البحث الكيفي أكثر عمقا في دراسة الظاهرة موضوع البحث، فيعمل الباحث على فهمه، وتذوقه للحالة في خبرته، وما يمتلكه من تراث علمي، وفي ضوء ملابسات الظاهرة التي يدرسها، فتجعل من البحث ميدانا خصبا للإبداع.[1]

ويتميز البحث الكيفي بتقديم بيانات ذاتية وليست موضوعية، فهو يهتم بالآراء ووجهات النظر والتجارب والخبرات الإنسانية وأحاسيس وشعور الأفراد، لذا فهو يتيح بيانات كيفية، يكون فيها التغير من حيث النوع، لا من حيث المقدار كما هو الحال في البيانات الكمية.[2]

وتأتي البيانات الكيفية في مجموعة معينة من الأشكال، مثل الملاحظات التي يتم إبداؤها أثناء الرصد في الميدان ، ونصوص المقابلات ، والوثائق والمذكرات ، والمجلات ، فضلا عن ذلك يراكم الباحث كمية كبيرة من البيانات أثناء الدراسة ، ويقوم بتنظيم كل هذه المعلومات وتحليلها ليجعل منها شيئا ذا معنى ، وهذا يشكل تحديات خاصة على الباحث الذي يستخدم الأساليب النوعية ، وعلى عكس النهج الكمي الذي ينتظر حتى جمع كل الأرقام قبل بدء التحليل ، فان تحليل البيانات في الدراسات الكيفية يتم مبكرا أثناء عملية الجمع ويستمر طيلة البحث ، إضافة لذلك ، فان الباحثين الكميين عموما يتبعون النموذج الاستنباطي في تحليل البيانات إذ يتم تطوير الفرضية مسبقا قبل الدراسة ، وبعدها يتم جمع البيانات ذات العلاقة ثم يتم تحليلها لتقرير ما إذا ثبتت الفرضية، وفي المقابل يستخدم الباحث الكيفي الأسلوب الاستقرائي أو يتم تجميع البيانات ذات العلاقة بموضوع ما ، ثم توضع في مجموعات مناسبة وذات معنى ، وتنبثق التفسيرات من البيانات.[3]

ولا يوجد أسلوب أوحد صحيح ومحدد ومتفق عليه في تحليل بيانات البحث الكيفي ، فبمجرد الانتهاء من جمع البيانات يجد الباحث نفسه أمام مجموعة كبيرة من البيانات التي تتطلب الفرز والتصنيف إلى مجموعات متدرجة ، وذلك حسب تصور ذهني يقابل أهداف البحث ، وحتى في مدخل تحليل المحتوى الذي يبدو بسيطا ، لابد أن يقوم الباحث بتحديد الخصائص المطلوب دراستها بعد التدقيق الشديد في المادة التي يتم تحليلها ، وفي غالبية

البحوث الكيفية يتداخل تحليل البيانات مع تفسيرها ، مع جمعها ، بمعنى أن الباحث أثناء تحليل البيانات قد يجد ضرورة الحصول على بيانات إضافية حتى يمكنه تحليل بيانات معينة ، وأثناء التفسير قد يجد ضرورة إعادة تحليل جزء معين من البيانات حتى يكتمل التفسير ... وهكذا، هذا التشابك يقل كثيرا في البحث الكمي حيث يكون جمع البيانات وتحليلها وتفسيرها خطوات محددة.[4]

1- تحليل وتفسير البيانات الكيفية ومعاييرهما:

تسمح الأدوات الكيفية بحصول الباحث على معرفة مباشرة عن العالم الواقعي الذي يتناوله بالدراسة، ويستطيع الباحث الذي يستخدم التحليل الكيفي أن يطور العناصر التحليلية والتصورية للتفسير من البيانات الواقعية ذاتها، بدلا من أن يبدأ بفئات كمية مفترضة قد لا تكون متصلة مباشرة بالطبيعة النوعية المتميزة للواقع الاجتماعي بتحليل عميق للبيانات يتميز بالشمول والقدرة على التشخيص الدقيق للمواقف والاتجاهات والمشاعر والانفعالات والعلاقات الاجتماعية، ولذلك تعد التحليلات الكيفية مدخلا أساسيا بهدف الحصول على معرفة صادقة عن الواقع الاجتماعي، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بإحداث الألفة التامة بين الباحث والمبحوثين والتوحد مع موضوع الدراسة بهدف كشف العلاقات المتبادلة بين أعضاء المجتمع.[5]

ولا يقتصر التحليل الكيفي على وصف "ماذا قيل؟"، وإنما يشمل أيضا "كيف قيل؟"، وما مغزاه؟ وما دلالته للفكرة مجال البحث في حد ذاتها وفي إطارها الأكبر أو الأشمل؟، أي أن تحليل البحث الكيفي ليس مجرد إيجاد حقائق وتركيبها، وإنما أيضا ينطوي على عملية نشطة من التفاعل والمعايشة للبيانات، بما في ذلك التفسير والتقييم، وما يترتب على كل ذلك من تركيز على بيانات معينة، وحذف بيانات أخرى، وإضافة وتعديل وتوضيح العلاقات، والربط بين الأفكار، والتصحيح، والمراجعة.[6]

ولذلك فتحليل البيانات يعد أهم وأصعب مرحلة في صيرورة البحوث الكيفية، ومن خلالها يتميز الباحث الخبير عن غيره، ويعرف بأنه العملية المنظمة للبحث في نصوص المقابلات، والملاحظات الميدانية، وتحليل الوثائق، التي تم جمعها للتعمق في فهمها، فكلمة التحليل الكيفي تشير إلى كل سيرورة تقنية أو فكرية لمعالجة وتشكيل واستكشاف وترجمة بيانات ناتجة بحث نوعي، بهدف التعرف على مواقف، وتحديد نماذج، وفهم عمليات، وتشكيل أصناف أو ترتيب موضوعات، ووضع فرضيات تتعلق بموضوعات (أفراد، أشياء، أحداث)، ويتميز تحليل البيانات الكيفية بأنه حدسي، لأن البحوث الكيفية لا تتبع المقاربة، فهي لا ترتكز على الطريقة الفرضية-الاستنتاجية "hypothético-déductive"، كما أن البيانات الكيفية تخضع في كثير من الأحيان لتأويل الباحث، ويمكن أن تكون أكثر صعوبة في معالجتها مقارنة بالبيانات الكمية.[7]

وقد حدد محمد منير حجاب معايير تحليل البيانات الكيفية، فيما يأتي:[8]

- أن تحلل البيانات التي جمعت تحليلا منطقيا كافيا.

- أن تحلل البيانات بطريقة موضوعية خالية من الآراء المرسلة والتعصب الشخصي.
- أن تنظم البيانات وتعالج بطريقة مناسبة وصحيحة.
- أن يخلو التحليل من التناقضات والعبارات المضللة.
- أن لا تكون هناك نقاط ضعف في البيانات، وإن وجدت يجب معالجتها.

2- مراحل تحليل وتفسير البيانات الكيفية:

تمر عملية تحليل البيانات الكيفية الخام بعدة مراحل، بدءا بتنظيم البيانات وصولا إلى نتائج البحث وكتابة التقرير، حيث تقوم عملية التحليل على ترتيب البيانات، وتقسيمها إلى وحدات بحث عن أنماط وأنساق، واكتشاف ما هو مهم، وما يمكن أن يستفاد من تلك البيانات، وتحليل البيانات في معظم البحوث الكيفية يتم في نفس الوقت مع جمع هذه البيانات، أي أن الباحث يبدأ في التفكير فيما رآه أو سمعه أو قرأه، عكس ما يحدث في البحوث التي يوجد فيها فاصل زمني بين جمع المعلومات وتحليلها الإحصائي، ولو أنه تحليل مبدئي يليه تحليل معمق، إن البيانات التي تجمع بالأداة التي اختارها الباحث تحتاج إلى عدة إجراءات قبل أن تصبح ذات معنى علمي، ويمكن تحليلها واستخلاص النتائج منها. وتتمثل أهم مراحل تحليل البيانات الكيفية في:[9]

أ- تنظيم البيانات الكيفية:

بعد إجراء المقابلة البحثية مع أفراد العينة يحصل الباحث على بيانات عديدة ومتنوعة، إلى جانب بعض الملاحظات التي سجلها أثناء عملية جمع البيانات، هذه البيانات تحتاج إلى تحرير وتنظيم وترتيب في جداول، وكذلك اختزالها، مما ييسر للباحث تحليلها.

ب- تشفير وتصنيف البيانات الكيفية:

تهدف هذه الخطوة إلى تقليص حجم البيانات الخام، وأسئلة البحث عامل أساس في تحديد وتوجيه نظام التصنيف، والصنف "La Catégorie" هو منتوج نصي يعرض في شكل عبارة مختصرة تسمح بتعيين ظاهرة مدركة، وتصنف البيانات وتبوب بطرق مختلفة حسب طبيعة البحث وأهدافه، وتتضمن هذه المرحلة الإجراءات الآتية:

- الشروع في قراءة متأنية ومعمقة للبيانات، فبعد تحضير البيانات المكتوبة عدة مرات، ويمكن للباحث أن يضع ملخصات لتسهيل حفظ المعلومات الخاصة بكل فرد من عينة الدراسة، ويسجل ملاحظاته بعد أن استقر في ذهنه هيكل مبني لهذا النظام التصنيفي.
- الشروع في التعرف ووصف التصنيفات الأولية، فالباحث يتعرف على مقاطع النص الذي يمثل في ذاته معنى خاص ووحيد، فيضع كلمة أو عبارة لتسمية الصنف الجديد الذي يكون فيه وحدة المعنى، أي إعطاء عنوان خاص لكثير من جزئيات البيانات التي لديه، وفي هذه المرحلة يمكن أن يضع وصفا أوليا للصنف المشكل، وتعديل الكلمات الدالة على الصنف، أو كتابة وصف مختصر مع كلمات مفتاحية تسهل للباحث تذكره.[10]

ت- مراجعة وتصفية الأصناف:

وهذا حتى يتمكن الباحث من الصياغة الدقيقة لما تعنيه الفئات والموضوعات العامة، وكذلك الفئات والموضوعات الفرعية في كل مجموعة من البيانات.[11]

ث- تحديد الأنساق والأنماط:

حيث يتم في هذه المرحلة دمج وتلخيص البيانات والتعمق في شرحها وتفسيرها، بهدف الإجابة على تساؤلات الدراسة، مع التدقيق في الأفكار وكيفية التعبير عنها والربط بينها، وربطها بإطار أشمل.[12] وذلك حتى يتمكن الباحث من استخلاص نتائج بحثه، كما توضحه المرحلتين التاليتين:[13]

ج- صياغة النتائج:

في هذه المرحلة يصوغ الباحث الأنماط والأنساق على شكل نتائج، تدعمها الأنساق التي ظهرت، وتشكلت من التصنيف الأساسي، وبعض الباحثين يسمي هذه المرحلة بالتصنيف الانتقائي، وذلك لأن الباحث يختار في عملية التصنيف ما يتناسب مع أسئلة بحثه، ويدع ما سوى ذلك.

ح- التحقق من النتائج:

في هذه المرحلة يعود الباحث لقراءة بياناته للتحقق من النتائج التي توصل إليها، ومناقشتها، وتعديل ما يجب تعديله من وجهة نظره، وهو في هذه المرحلة يتحقق من أن ما توصل إليه بعد عمليات التصنيف المختلفة لا يوجد في البيانات ما يناقض هذه التصنيفات، أو يجعله يعيد النظر في الافتراضات التي توصل إليها، وفي هذه المرحلة فقط يستغل الباحث التراث العلمي للموضوع حتى لا يؤثر على موضوعية تحليله.

هوامش ومراجع:

1. ماجد الخياط، أساسيات البحوث الكمية والنوعية، دار الراية للنشر والتوزيع، 2010.
2. شارلين هس بيبر، باتريشيا ليفي، ت. هناء الجوهري، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2011.
3. ايف وينكين، أنثروبولوجيا التواصل من النظرية إلى الميدان، ت. خالد عمراني، هيئة البحرين للثقافة والآثار، البحرين، 2018.
4. زيتون كامل عبد الرزاق، تصميم البحوث الكيفية ومعالجة بياناتها إلكترونياً. الرياض: عالم الكتب، 2006.
5. حيريز رزيقة، (المنهج الإثنوغرافي واستخداماته في علوم الإعلام والاتصال). مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الجلفة، العدد 4، السنة 2018.

6. شاوي ليلى و خامت حميدة، (تكنولوجيات الإعلام و الاتصال و دورها في تجديد المناهج البحثية – مقاربة المنهج الإثنوغرافي). مجلة حقول معرفية للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 01، السنة 2020.